أركـان للدراسات والأبحاث والنشر
Arkan for Studies Research and Publishing

في ظل فيروس كورونا: الأوروبيون أكثر تضامناً أم فرديةً؟

إعداد
بيير بريشون*

ترجمة
نجم الدين محمود

في ظل فيروس كورونا: الأوروبيون أكثر تضامناً أم فردية؟

تمهيد:

في ظل أزمة فيروس كورونا، هل سيظهر الأوروبيون أكثر تضامنًا وانفتاحًا على مَن حولهم، أم على العكس أكثر تنافرًا وتمركزًا حول مصالحهم؟

إن الجواب عن هذا السؤال ليس سهلًا؛ فمن المعلوم أنه في فترات الحروب نلاحظ تطورات متضاربة، حيث تدفع الأحداث البعض إلى التحرك للدفاع عن البلاد، ومداواة الجرحى، والتآزر في الحياة اليومية؛ في حين آخر، قد يفكر البعض الآخر في الاستفادة القصوى من الأوضاع المتردية، وذلك بالمضاربة على نقص السلع؛ للقيام بأعمال تجارية تُدرّ أرباحًا طائلةً[١].

ونتحدث اليوم عن الكثير من مبادرات التضامن، التي تمت للتعامل مع جائحة كوفيد ١٩، ولكن من المتوقّع أن نرى أشكالًا أقل تقهقُرًا من حيث النزعة الفردية[٢]؛ لأنها لم تحظَ بالقدْر نفسه من الرواج.

ما تكشف عنه استطلاعات الرأي:

أجرتْ معاهد استطلاعات الرأي الكبرى، في فرنسا والعالم، العديد من التحقيقات؛ لمتابعة تطور آراء الناس في هذه الفترة من الأزمة. وتميل جميع الدراسات الفرنسية إلى إظهار زيادة معدلات القلق بشأن الصحة، والعمل، ونقص الدخل، وذلك بالتزامن مع عدد الحالات المكتشَفة، كذلك تشير إلى زيادة الالتزام بتدابير العزل، وإلى التحسُّن الكبير في ممارسات النظافة الشخصية[٣].

يعبر الكثيرون عن رغبتهم في توفير تدابير عزل أكثر صرامة؛ مما يكشف عن المخاوف والمطالبات المتعلّقة بالسياسات العامة، التي زادت في السنوات الأخيرة. ويبدو أن الثقة التي منحها الشعب للحكومة بشأن إدارة الأزمة بدأت تتضاءل، على الرغم من قوتها في بداية الأزمة؛ وهو ما يُظهر أن اتجاهات الاحتجاج لم تختفِ مطلقًا[٤].

ووفقًا للمعهد الفرنسي للرأي العام، فإنه يجب على الفرنسيين العمل لأجل زيادة استخدامهم للشبكة العنكبوتية في المستقبل، مثلًا في: الاستشارات الطبية عن بُعد، والبيع عن بُعد، والعمل عن بُعد، وعقد المؤتمرات عن طريق تقنية الفيديو كونفرانس، إلى غير ذلك كذلك من المتوقع أن يزداد طلبهم على الجودة – جودة المنتجات والهواء – وسوف يصبحون أكثر عقلانية بشأن مشترياتهم، بل سيقومون بالتفكير في

---

* أستاذ في العلوم السياسية، وحاصل على الدكتوراه الفخرية، معهد جرونوبل للدراسات السياسية Sciences Po Grenoble، كاتب مؤسس للنسخة الفرنسية لموقع The Conversation.

الدراسة منشورة باللغة الفرنسية على موقع: The Conversation على رابط (https://bit.ly/369uhE5)، بتاريخ ٢٩ أبريل ٢٠٢٠.

١ كما حدث إبان الحرب العالمية الثانية من انتشار السوق السوداء التي استغلت حاجة الدول للسلع الأساسية. (المترجم)

٢ مع حلول أزمة كورونا وزيادة إجراءات التباعد الاجتماعي والحجر المنزلي ، انحسر الحديث عن اللاجئين المتكدسين أمام المعابر الأوروبية وقضيتهم، وبالتالي انخفضت أشكال النزعة الفردية في ضوء ذلك (المترجم)

٣ استطلاع للرأي أجراه المعد الفرنسي للرأي العام (IFOP): متابعة لأزمة فيروس كورونا وسلوك الحكومات https://bit.ly/2Bd-bAnE.

٤ المرجع السابق.

جودة الحياة ذاتها، بحيث يتمركز تفكيرهم على الأساسيات بدون معرفة المقاييس الصحيحة لها، ومن المتوقع أيضًا أن يكونوا أقلّ تقبُّلًا للتضحية بكل شيء في سبيل العمل، وسيكونون أكثر تفكيرًا واهتمامًا بصحتهم، وأخيرًا يجب أن يكونوا أكثر مطالبةً بالحياة الاجتماعية والتضامن، بعد أن عانوا من الوحدة أثناء العزل، وبعبارة أخرى؛ فإن التوجهات المرئية لتلك السنوات الأخيرة سوف يتم تدعيمها وتسريعها بفعل تلك الأزمة الصحية الراهنة.

قد تبدو تلك الافتراضات للمستقبل منطقيةً للوهلة الأولى، بيْد أنه من الضروري النظر إليها بحرص شديد؛ فالأزمات، والأحداث الدرامية، ليست لها تأثيرات تلقائية على المجتمعات؛ والقيم تتّسم بالعمق، وتتطور ببطء، ولا يُعاد تشكيلها بشكل مستدام ما دامت العادات القديمة يُعاد تثبيتها العادات، وخصوصًا عندما تجري الحياة في مجراها الطبيعي دون تأثيرات تُذكر.

التأثير المحدود للأزمات على القيم:

لم يكن للأزمة المالية في عام ٢٠٠٨ تأثيرات قوية، كما كنا نعتقد في ذلك الوقت، فربما أسفرت عن تأثيرات متباينة، فولّدت تضامنًا أكثر لدى البعض، وتراجعًا شعبويًّا لدى البعض الآخر، ولكن بصفة عامة، يبدو أن الأثر العام ضعيف؛ فعند مقارنة نتائج استطلاعات دراسة القيم الأوروبية European Values Study (EVS) لعام ٢٠٠٨ مع استطلاعات عام (٢٠١٧ / ٢٠١٨)، فسنلاحظ تقاربًا بين النتائج.

ثمة فوارق كبيرة بين الدول، ولكنّ تغيرات الأبعاد الأساسية للقيم بقيت محدودة نوعًا ما، ولا ترتبط تفسيراتها بالضرورة بأزمة عام ٢٠٠٨، بل سببها بالأحرى الاتجاهات الطويلة المدى؛ ولهذا فإن الرغبة في الذاتوية – وهي القدرة على الاختيار بحرّية في جميع مجالات الحياة – أصبحت تتزايد أكثر فأكثر.

وتعد ظاهرة الفردية هذه –في الواقع– اتجاهًا قويًّا للغاية لتغيير القيم المرتبطة بالعَلْمَنَة، التي تحظى بأهمية كبرى في دول أوروبا الغربية منذ بدْء صعود النزعة الفردية في الستينيات، وهذا الاتجاه قريب للغاية ممّا يُطلق عليه السياسي الأمريكي الكبير رونالد إنجلهارت Ronald Inglehart: «ما بعد المادية Post-materialism»[٥].

وتقلّ النزعة الفردية في أوروبا الشرقية، التي لا تزال تعتمد بشدة على القيم الدينية التقليدية، بيْد أنه بالنسبة للجزء الغربي من القارة، تبرز اختلافات كبيرة في مستوى الفردية، وقد قِيسَتْ بمؤشر يعتمد على العديد من الأسئلة حول حرية الاختيار في جميع مجالات الحياة (انظر الجدول ١).

٪	إيطاليا	ألمانيا	فرنسا	إسبانيا	بريطانيا	هولندا	السويد	أوروبا
مؤشر قوة الفردية	٢١	٤٩	٣٩	٤١	٣٨	٥٣	٧٠	٧٣
مؤشر قوة الثقة بالآخر	٣٥	٤٩	٥١	٥٩	٦٩	٨١	٨٤	٥٠

جدول (١): مستوى قوة الفردية وقوة الثقة بالآخر في سبع دول أوروبية[٦]

٥ ما بعد المادية Postmaterialism مصطلح صكه العالم السياسي رونالد إنجلهارت Ronald Inglehart في كتابه الصادر عام ١٩٧٧ تحت عنوان (الثورة الصامتة) وهو يعني تحول القيم الفردية من القيم المادية والاقتصادية إلى قيم الاستقلال الفردي والتعبير عن الذات. (المترجم)

٦ نتيجة متوسط ٢١ دولة (دراسة القيم الأوروبية EVS ٢٠١٧/٢٠١٨)

انضباط ذاتي أكثر في المستقبل:

على نقيض الأرقام في إيطاليا، يمكن لارتفاع قيمة الحريات الفردية في السويد وهولندا أن تفسر الاستراتيجيةَ المتبعة في مكافحة فيروس كورونا، وهي: أن الأمر متروك للجميع للانضباط الذاتي، دون الحاجة إلى سَنّ تدابيرَ شديدة الصرامة، لا سيّما أن هذه المجتمعات لديها شعور قوي بالمواطنة، وقدرة على ضبط النفس داخليًّا.

فالأفراد يتبادلون الثقة دون معرفة بعضهم ببعض (جدول ١)، لكن تظل الشفافية قائمة؛ ففي الدول الاسكندنافية يعد مستوى دخل جميع الأسر الدافعة للضرائب من البيانات العامة، كذلك تحظى زيادة الضرائب بالقبول من الدول الأوروبية الأخرى. وفيما تبدو الثقة بالآخر قوية للغاية في الدول الاسكندنافية، فإنها تبدو ضعيفة في دول جنوب أوروبا وشرقها بشكل عام.

ولم تُسفر أزمة ٢٠٠٨ عن تراجع في النزعة الفردية، كما كان البعض يخشى؛ فقد ارتفع مؤشر الغيرية (التي نُطلق عليها (الإيثار) في مجتمعاتنا العربية) – وفقًا لبيانات استطلاعات دراسة القيمة الأوروبية EVS – ارتفاعًا طفيفًا في أوروبا في السنوات العشرين الأخيرة. فاستنادًا إلى عدة أسئلة حول الشعور المسئولية تجاه الظروف المعيشية لبعض الفئات المختلفة من السكان، فإن مؤشر الغيرية قد ارتفع من ٤٨٪ في ١٩٩٩ إلى ٤٩٪ في ٢٠٠٨، ثم إلى ٥٢٪ في (٢٠١٧ / ٢٠١٨).

ووفقًا للبيانات السابقة، فإن المؤشرات بين البلدان تتفاوت بمعدل ضخم، حتى في دول أوروبا الغربية (جدول ٢)، ونستطيع أن نعزو ذلك للاختلاف الشديد بين الثقافات، غير أن هذه الاختلافات لم تتأثر بالأحداث العالمية الكبرى التي أثّرت على العالم أجمع. وتميل نتائج التحقيقات إلى أنه حتى الكيان الأوروبي لم يستطع التقليل من الاختلافات في القيم بين البلدان في السنوات الأربعين الماضية.

	إيطاليا	ألمانيا	فرنسا	إسبانيا	بريطانيا	هولندا	السويد	أوروبا*
مؤشر الغيرية	٦٠	٨٣	٥٢	٧٩	٥٠	٢٩	٦٣	٥٦

جدول (٢): مستوى الغيرية (الإيثار) لدى سبع دول أوروبية[٧]

تأثير القضايا الأمنية:

من الممكن أن تكون للأحداث الأخرى آثارٌ أكثر أهمية من الأزمة الاقتصادية لعام ٢٠٠٨؛ ولهذا من المحتمل أن تكون الهجمات الإرهابية قد عززت من الزيادة في المطالبة بالنظام والأمن على مدى السنوات العشرين الأخيرة، لكن هذه المطالب مرتبطة أيضًا بالارتفاع – الحقيقي أو المتوهَّم – في الممارسات غير الأخلاقية اليومية.

٧ نتيجة متوسط ٢١ دولة (دراسة القيم الأوروبية EVS ٢٠١٧-٢٠١٨)

وفي هذا السياق، ارتفعت – نوعًا ما – المطالبات بالمزيد من السلطة، غير أن الثقة في الجيش والشرطة هي التي ازدادت بالقدر الأكبر، خاصة في فرنسا (جدول ٣).

	إيطاليا	ألمانيا	فرنسا	إسبانيا	بريطانيا	هولندا	السويد	أوروبا*
مؤشر الثقة في الجيش/الشرطة	٧٢	٥٢	٧٢	٥٠	٧٧	٥٠	٥٩	٦٠
المطالبة بالنظام والسلطة	٣١	١٣	٤٤	٣٦	٣٥	٤٥	٢٦	٣٠

جدول (٣): مستوى قوة الثقة بالمؤسسات المحافِظة على النظام والمطالبات بسلطة أكبر[٨]

وفيما يتعلق بمواقف الانفتاح أو الانغلاق تجاه المهاجرين؛ فقد يكون تدفُّقهم الضخم منذ عام ٢٠١٥ قد عزّز التصورات السلبية، بيْد أن شعور شريحة من السكان بغزو هؤلاء المهاجرين لهم كان متأصّلًا من ذي قبل، غير أن الاتجاه الرافض لمجاورة المسلمين أو ذوي الأصول العرقية الأجنبية يميل إلى الانخفاض في شرق أوروبا، وعلى العكس، يرتفع في غربها منذ ٢٠٠٨.

متظاهرون يرفعون لافتات مكتوب عليها: «شيّدوا الجسور وليس الجدران!»، و«التضامن مع اللاجئين في اليونان»، في برلين في ٩ مارس ٢٠٢٠؛ احتجاجًا على سياسات الهجرة الأوروبية، ومعاملة اللاجئين على الحدود اليونانية.

٨ نتيجة متوسط ٣٠ دولة (دراسة القيم الأوروبية EVS ٢٠١٧–٢٠١٨)

التسامح على المدى الطويل:

تشير بعض الدراسات إلى أن الأزمات الناتجة عن الهجرة، وكذلك الأحداث التي يمكن أن تنشأ من التمييز العرقي؛ لها آثار قصيرة المدى على رفض هؤلاء المهاجرين، لكنّ هذا الرفض بدأ في الانخفاض على المدى الطويل؛ بالتزامن مع زيادة قيم التسامح.

ويمكننا رؤية ذلك بوضوح؛ من خلال نتائج السؤال الذي طُرح بشأن ضرورة قصْر الوظائف على حاملي جنسية الدولة، عندما تكون الوظائف شحيحة (جدول ٤). لكنّ هذا الاتجاه يميل إلى الانخفاض على مدى فترة زمنية طويلة، ومع ذلك فقد ظلت الاختلافات بين البلدان كبيرة للغاية، فلطالما كان السويديون مترددين للغاية بشأن السياسات التي تجعل الأولوية للمواطنين، في حين آخر، فقد كان الإيطاليون دائمًا مؤيدين وبشدة.

	١٩٩٠	١٩٩٩	٢٠٠٨	٢٠١٨
إيطاليا	٧١	٦١	٦١	٦٧
ألمانيا	٦٥	٦٤	٥٢	٣٣
فرنسا	٦٣	٥٤	٤١	٤٥
إسبانيا	٧٨	٦٥	٥٦	٤٤
بريطانيا	٥٣	٥٩	٦٩	٣٨
هولندا	٣٣	٢٧	٣٧	٤١
السويد	٣٥	١١	٢٣	١٢
٢١ دولة أوروبية	٧١	٦٦	٦٣	٥٤

جدول (٤): جعل الأفضلية للمواطن للحصول على العمل

وفي النهاية؛ نستطيع القول إن تأثير أزمة فيروس كورونا من المحتمل أن يكون ضئيلًا نسبيًّا على القيم الأوروبية؛ لأن الأزمات لا تعَدّ العامل المؤثر على تغيير القيم.

وقد يرجع ذلك إلى الكثير من التغييرات التي تحدث على المدى الطويل؛ مثل الثورات الصامتة التي تؤثر على مجتمعاتنا، لا سيما العلمانية والفردية، دون استبعاد الاختلافات الخاصة بكل بلد؛ وكذلك الاختلافات التي تضرب بجذورها في التاريخ الوطني، مع ضرورة الأخذ في الاعتبار أن القيم ليست متجمدة، بل يمكن للطريقة التي تعمل وتستثمر بها الجهاتُ الاجتماعية والسياسية الفاعلة أن تساعد في تسريع بعض التغيرات القيمية أو إبطائها. ويؤكد على ذلك تلك المقارنة المعقودة بين إيطاليا وإسبانيا؛ فإسبانيا تطورت كثيرًا نحو قيم الاستقلال الذاتي للأفراد على مدى الأربعين عامًا الماضية، في حين ظلت إيطاليا أكثر تقليديةً إلى حد كبير.

صادر عام ٢٠٢٠ عن مركز أركان للدراسات والأبحاث والنشر

الآراء الواردة بالدراسة تعبر عن وجهة نظر كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المركز، ويمنع نقل هذه الدراسة أو نسخها أو ترجمتها أو أي جزء منها إلا بإذن مسبق من المركز

info@arkan-srp.com

أركان للدراسات والأبحاث والنشر

Arkan for Studies Research and Publishing